

برنامج متوافق مع وزارة التربية التونسية - البكالوريا شعب علمية مقال فلسفي منهجي: الوعي واللاوعي

(حقيقة الإنسان بين كوجيتو الوعي واكتشاف اللاوعي)

(Introduction) أولاً: المقدمة المنهجية

يمثل التفكير في حقيقة النفس الإنسانية أحد المحاور الفلسفية الأكثر إثارة للجدل والنقاش عبر تاريخ الفكر البشري. فلئن استقر التقليد العقلاني الميتافيزيقي الكلاسيكي على تعريف الإنسان بكونه كائناً واعياً بالأساس، وتحديد الذاتية كشفافية مطلقة تطابق بين النفسي والواعي، فإن تطور الفكر الفلسفي والعلوم الإنسانية المعاصرة - ولا سيما نشأة التحليل النفسي - قد وضع هذه البديهية أمام اختبار حرج. لقد كشف هذا التحول أن الوعي ليس سوى سطح مظهري للوجود النفسي، وأن حقيقة الإنسان أكثر تعقيداً وعمقاً مما يتراءى للذات في مرآة الوعي المباشر.

ومن هذا المنطلق المنهجي، تتحدد الإشكالية المحورية لدرس 'الوعي واللاوعي' في الأسئلة الفلسفية التالية: هل يتأسس الوجود الإنساني على الشفافية المطلقة والوعي الكامل بالذات كما قررت العقلانية الكلاسيكية، أم أن اكتشاف اللاوعي يكشف عن مناطق عممة تجعل الوعي مجرد جزيرة صغيرة في محيط النفسية؟ وبأي معنى يعتبر الإقرار باللاوعي إثراءً لإنسانية الإنسان وتوسيعاً لآفاق فهمه لذاته وليس تهديداً لمسؤوليته الأخلاقية والعقلية؟

وللمعالجة المنهجية لهذه الإشكالية، سنتبع تخطيطاً فلسفياً يقوم على لحظات ثلاث: ننطلق في اللحظة الأولى بتحليل أطروحة الشفافية واختزال النفسية في الوعي (مع ديكارت وألان)، ثم نتوقف في اللحظة الثانية لكشف حدود أطروحة الوعي المباشر ومازفها المعرفية والنفسية، لنبني في اللحظة الثالثة أطروحة اللاوعي مع سيغموند فرويد وتبيان رهاناتها الإستمولوجية والأخلاقية والوجودية.

(Développement) ثانياً: الجوهر

اللحظة الأولى: أطروحة الشفافية والوعي كمقياس مطلق للنفسية 1.

تتأسس النظرة العقلانية الكلاسيكية للإنسان على مطابقة تامة بين مفهوم 'النفسي' ومفهوم 'الواعي'. وتجد هذه الأطروحة جذورها الحاسمة في الفلسفة الديكارتية؛ حيث اعتبر رينيه ديكارت أن الماهية الجوهرية للروح هي التفكير والوعي الشفاف المباشر. ففي الكوجيتو 'أنا أفكر، إذن أنا موجود'، يتكشف الوعي كحقيقة يقينية مطلقة لا يرتقي إليها الشك. فأن أكون ذاتاً يعني أن أكون مدركاً بالكامل لكل ما يجري في ساحة نفسي من أفكار وانفعالات ورغبات.

'لا توجد حقيقة أخرى أكثر بساطة وأقل غموضاً من أن النفس تفكر وتعي أفكارها بصفة مطلقة ومباشرة'
رينيه ديكارت (مبادئ الفلسفة) —

الذي رفض مقولة (Émile Chartier) وقد امتد هذا التصور الميتافيزيقي مع الفيلسوف الفرنسي المعاصر ألان اللاوعي رفضاً قاطعاً واعتبرها وهم أيديولوجي وخطيئة أخلاقية. يرى ألان أن القول بوجود 'لاوعي' يمارس سلطة غفن على الذات هو مجرد حيلة يتدعها الفرد للتهرب من مسؤوليته الأخلاقية والواعية عن أفعاله. فالفكر بالنسبة لآلان هو الفاعل الواعي الفردي، والجسد هو مصدر الانفعالات والآليات الفيزيائية فقط، ولا وجود لجهة 'ثالثة غامضة تُسمى 'اللاوعي'.

اللحظة الثانية: حدود أطروحة الشفافية ومآزق الوعي المباشر. 2.

على الرغم من الصرامة الأخلاقية والمنهجية لأطروحة الشفافية، إلا أنها تصطدم بواقع الخبرة المعيشة والحقائق النفسية السلوكية التي تعجز العقلانية التقليدية عن تفسيرها. فالإنسان في حياته اليومية يمر بتجارب وزلات تُظهر أن الوعي ليس سيداً كاملاً في بيته؛ فمن أين تتأتى فلتات اللسان، وزلات القلم، والأفعال الناقصة، والأحلام المعقدة، والأعراض الهستيرية والنفسجسمية التي تعاند إرادة الفرد الواعية؟

إن اختزال النفس في الوعي المباشر يجعل العقل عاجزاً عن فهم هذه الظواهر، ويدفعه إما إلى رميها في خانة العبث والصدفة، أو عزوفه عن معالجتها. إن الشفافية الوعائية التي تنادي بها الكلاسيكية هي شفافية وهمية تخلق بين 'ما نأمل أن نكونه' (ذوات عاقلة مسيطرة) وبين 'ما نحن عليه فعلياً' (ذوات تتأهب الدوافع والنزوات والصدمات الخفية).

اللحظة الثالثة: ثورة التحليل النفسي وإثبات الواقع الأنطولوجي للاوعي. 3.

ثورة إبستمولوجية ونفسية جذرية عبر (Sigmund Freud) أحرز الطبيب والفيلسوف النمساوي سيغموند فرويد تأسيس مدرسة التحليل النفسي. لم يعد اللاوعي مع فرويد مجرد سلب للوعي أو صفة عرضية، بل أصبح واقعاً نفسياً أنطولوجياً قائماً بذاته، بل إنه المكون الأساسي والأعظم للبنية النفسية الإنسانية.

إن اللاوعي هو النفسي الفعلي والواقعي في عمقه وجوهره، وحقيقته الباطنية مجهولة لدينا تماماً مثل 'حقيقة العالم الخارجي' سيغموند فرويد (تفسير الأحلام) —

صاغ فرويد نموذج البنيوي الثاني للجهاز النفسي مبيناً أنه يتكون من ثلاثة أجهزة متفاعلة ومتصارعة:

1. خزان الدوافع والغرائز البدائية (الليبيدو وإرادة الحياة/الموت) الخاضعة لمبدأ اللذة دون اعتبار (Ça/Id) الهو. للزمن _____ أو المفهوم _____وم الأخلاقي
2. سلطة القيم الأخلاقية والمعايير الاجتماعية التي تمت المضمون التربوي (Sur-moi/Superego) الأنا الأعلى. والثقة _____ وفي وت _____ولى الكبت والرقابة

الجهاز الذي يحاول التوفيق الشاق والمستمر بين مطالب الهو الجارفة، وصرامة الأنا الأعلى، (Moi/Ego) الأنا 3. ومعطيات الواقع الخارجي.

ومن هنا ينكشف الوعي لدى فرويد ليس كمركز للسيادة، بل كجزء السطح الطافي من جبل الجليد النفسي. فالأحلام ليست عبثاً بل هي 'الظاهرة النفسية المعبرة عن تحقيق رغبة مكبوتة بلغة رمزية'، والفلتات والأعراض النفسية هي منفذ ناطق بالحقائق المكبوتة في اللاوعي.

المكاسب الفلسفية والرهانات الأخلاقية لمفهوم اللاوعي 4.

تتجلى أهمية أطروحة اللاوعي في إحداث نقلة نوعية في نظرة الإنسان لنفسه ومحيطه

على المستوى الإستيمولوجي: تحرير الدرس الفلسفي والنفسي من الوهم العقلاني المغلق، وتأسيس نموذج علمي قادر على تفسير وفهم الظواهر السلوكية والمرضية وعلاجها عبر تقنية التداعي الحر وتحليل الأحلام.

أن فرويد ينتمي إلى (Paul Ricœur) على المستوى الإنساني والأخلاقي: يرى الفيلسوف الفرنسي بول ريكور 'مدرسة الشك' (مع نيتشه وماركس) التي كشفت أوهام الوعي المباشر. غير أن هذا الكشف لا يعني هدم المسؤولية الأخلاقية، بل إعادة بنائها على قواعد أكثر تواضعاً وعمقاً؛ فالوعي ليس معطى أولياً جاهزاً، بل هو مهمة وتكليف يتطلب نضال الذات لفهم مجهولاتها الباطنية وتصالها مع أبعادها الكلية.

(Conclusion) ثالثاً: الخاتمة التركيبية

تأسساً على ما تقدم من التحليل والمناقشة الفلسفية المنهجية، نستنتج أن تجربة الوجود الإنساني لا يمكن إفراغها في قوالب الشفافية الوعائية المطلقة ولا اختزالها في الشطحات اللاوعية المغلقة. إن حقيقة الإنسان تتجلى في كونه ذاتاً تسعى باستمرار نحو توسيع دائرة الوعي واستيعاب مناطق العتمة في جهازها النفسي.

وللإجابة المباشرة عن الإشكالية: لم يعد اكتشاف اللاوعي نادماً أو مهدداً لإنسانية الإنسان، بل أصبح شرطاً حاسماً لبناء وعي نقدي أصيل يتجاوز النرجسية العقلانية الكلاسيكية. فالأنا ليس سيداً مطلقاً في بيته الخاص، لكنه مدعوٌ باستمرار للعمل على امتلاك ذاته وتوجيه بنائها.

الأفق المفتوح: وإذا كانت الذات تبني إنيتها عبر الوعي المتجسد وتصارع كوامن لاوعيها الباطني، فهل تستطيع هذه الذات إنجاز هويتها في عزلة فردية، أم أن تجذرها في العالم يفرض فوراً مواجهة الآخر (الغريبة) كشرط وجودي لتأثيث الوجود الإنساني؟ (وهو ما يمهد للمقال الثالث: الذات والآخر)